مجلة عصور الجديدة- فصلية مصنفة ج- المجلد 10- العدد 4 (ديسمبر) 1442هـ/2020م
ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

الرحالة والمستكشفون الفرنسيون في توات خلال القرن التاسع عشر ودورهم في احتلال المنطقة

French Travelers and Explorers in Touat During The Nineteenth Century and their Role in Occupying the Region

اسم ولقب المؤلف المرسل للمقال: عبد المالك طاهري- Tahri Abdelmalek صص308- 326
الدرجة والعنوان المهني: طالب دكتوراه وعضو في مختبر المخطوطات الجزائرية في إفريقيا- جامعة أحمد دراية- أدرار (الجزائر) /البريد الإلكتروني: abdelmalek.tahri@univ-adrar.dz
اسم ولقب المؤلف الثاني: أحمد بوسعيد- Boussaid Ahmed
الدرجة والعنوان المهني: أستاذ محاضر أ- جامعة أحمد دراية – أدرار (الجزائر)
البريد الإلكتروني : ahm.boussaid@univ-adrar.dz

تاريخ استقبال المقال: 2020/06/10 تاريخ المراجعة: 2020/08/30 تاريخ القبول: 2020/09/12

الملخص: لم يكن الاهتمام الأوروبي بمنطقة توات وليد القرن التاسع عشر ميلادي، وإنما يعود إلى البدايات الأولى للرحلات الأوروبية بالصحراء الكبرى، بعد أن ظلت تلك الرحلات مقتصرة على نهر النيجر وحوض السنغال لمدة ليست بالقصيرة؛ فقد اقتصرت رحلات المغامرين الأوروبيين في القرن الثامن عشر على اختراق الصحراء من الجنوب، أي من حوض النيجر وحوض السنغال بحكم سيطرتهم على سواحل إفريقيا الغربية، وخلال القرن التاسع عشر ازداد الحديث عن الصحراء الجزائرية وتوات خاصة في الكتابات الأوروبية، وذلك مرتبط بالحملات الاستكشافية التي قام بها الأوروبيون عامة والفرنسيون خاصة في الصحراء الكبرى، سواء كانوا عسكريين أو مدنيين.

وتزايد اهتمام فرنسا بالصحراء الإفريقية الكبرى بما فيها الصحراء الجزائرية خاصة بعد احتلالها للجزائر سنة 1830م؛ فأرسلت بعثات استكشافية عسكرية ومدنية للجنوب الجزائري من أجل أغراض اقتصادية وعسكرية توسعية، وقد حلَّ بتوات العديد من المستكشفين الفرنسيين أمثال: رونييه كاييه ودوماس وبول صولييه والجنرال كافينياك، الذين قاموا بتدوين ملاحظاتهم حول المنطقة، مشجعين السلطات الفرنسية على التوغل في المنطقة واحتلالها.

EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636 ردمد
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

لم تكن تلك الرحلات الاستكشافية التي بدت في ظاهرها بعثات علمية، سوى مقدمة لاستراتيجية بعيدة المدى هدفها النهائي استعمار المنطقة، ولهذا أسست فرنسا جمعيات جغرافية أخذت على عاتقها التموين والإشراف على تلك الرحلات، ونشر أخبارها في شكل تقارير استفاد منها القادة العسكريون الفرنسيون، في السيطرة على منطقة توات واحتلالها مع مطلع القرن العشرين.

الكلمات المفتاحية: توات؛ الجزائر؛ الرحالة؛ المستكشفين؛ القرن التاسع عشر؛ فرنسا؛ الصحراء الجزائرية؛ البعثات العسكرية الفرنسية؛ الاحتلال؛ التوغل.

Abstract: *European interest in the Touat region was not born in the nineteenth century AD, but rather dates back to the early beginnings of European trips to the Great Desert, after those excursions were confined to the Niger River and the Senegal Basin for a period of not long. , I.e. from the Niger Basin and the Senegal Basin by virtue of their control of the coasts of West Africa. During the nineteenth century, there was increased talk about the Algerian desert And Touat, especially in European writings, and this is linked to exploratory campaigns carried out by Europeans in general and the French in particular in the Sahara, whether they are military or civilian.*

France's interest in the Great African Sahara, including the Algerian desert, increased especially after its occupation of Algeria in 1830, so it sent military and civil exploratory missions to southern Algeria for economic and military expansion purposes, Touat has attended many French explorers, such as René Caillé and Daumas and Paul Soleillet" and Cavaignac, who took notes on the region, encouraging the French authorities to penetrate and occupy the area.

Those expeditions that appeared on the face of scientific expeditions were nothing but an introduction to a far-reaching strategy whose ultimate goal is colonizing the region, and this is why France established geographical societies that took it upon themselves to supply and supervise those trips, and publish their news in the form of reports that French military leaders benefited from in controlling Touat region and its occupation at the beginning of the twentieth century.

Keywords: Touat; Algeria; Backpacker; Explorers; Nineteenth century; France; Algerian desert; French military missions; Occupation; Incursion.

المقدمة: مع مطلع القرن التاسع عشر الميلادي تزايد اهتمام فرنسا بإفريقيا، وبرزت إلى الوجود مشاريع استكشاف الصحراء الكبرى، وهو ما شجع الفرنسيين على الاهتمام بالصحراء الجزائرية، من خلال التنافس حول القيام ببعثات استكشافية متنوعة، وخاصة بعد احتلالهم للجزائر 1830م، ونجاحهم في مد نفوذهم في المناطق الساحلية والتلية، حيث

كثفت فرنسا البعثات الاستكشافية إلى مناطق الصحراء الجزائرية، ومنها منطقة توات، لتدوين كل صغيرة وكبيرة عن المؤهلات الطبيعية والاقتصادية والبشرية للمنطقة، وضمّت هذه البعثات شخصيات من مختلف التخصصات من باحثين ومغامرين وضباط عسكريين، لإنجاز تقارير تمكن السلطات الفرنسية من التعرف على خبايا المنطقة، والسيطرة عليها واستغلال خيراتها، وانطلاقاً من هذا سنسلط الضوء في هذه الورقة البحثية على أهم البعثات والرحلات الاستكشافية الفرنسية التي وطِئت أقدامها توات خلال القرن التاسع عشر، وإبراز أهم النتائج التي توصلوا إليها، والدور الذي قدمته هذه البعثات لفرنسا حتى تتوغل في المنطقة، محاولين الإجابة عن إشكالية رئيسية تتعلق بماهية الرحلات والبعثات الاستكشافية الفرنسية لتوات خلال القرن التاسع عشر؟ وما هي أبرز نتائج هذه البعثات؟ وكيف استغلتها فرنسا لاحتلال المنطقة؟

2- لمحة مختصرة عن توات:

1.2 الموقع الجغرافي والفلكي: تقع توات غرب الصحراء الجزائرية، التي هي جزء من الصحراء الإفريقية الكبرى، وتبعد أقرب نقطة عن العاصمة الجزائرية بـ1500 كلم، تتربع على مساحة تصل 427963 كم2، وتشمل هذه المنطقة عددا من الواحات والمدن والقصور، تزيد عن 350 واحة متناثرة[1]، وتمتد فلكياً بين خطي طول 1 درجة شرقاً و4 درجات غرباً، وبين دائرتي عرض 26 درجة و30 درجة شمالاً[2]، ويحدها من الجنوب صحراء تانزروفت وواد قاريت وجبال مويدرا، ومن الشرق العرق الشرقي الكبير، وغرباً واد الساورة وروافده، وتنقسم توات إلى ثلاث جهات محلية متباينة هي:

- منطقة قورارة، وتمتد من تبلكوزة إلى تسابيت، وعاصمتها تيميمون.
- منطقة توات الوسطى، وتمتد من تسابيت إلى رقان، وعاصمتها تمنطيط ثم تيمي ثم أدرار.
- منطقة تيديكلت، وتمتد من رقان إلى فقارة الزوى، وعاصمتها عين صالح.

وتقع توات في عمق الصحراء ضمن مظهر تضاريسي تغلب عليه الرمال، ويتميز مناخ توات بالجفاف وشدة الحرارة صيفاً والبرودة القارسة شتاءً، والأمطار فيه شبه معدومة، وأما رياحه فالغالب عليها رياح الشهيلي والرياح الجنوبية الشرقية (**sirocco**)، أما الغطاء النباتي فيميزه زراعة النخيل المنتشرة بشكل واسع، لتحملها الحرارة الشديدة، والنباتات الشوكية، كما تتوفر على الثروة الحيوانية المتمثلة في الماعز والأغنام والجمال.[3]

2.2 أصل التسمية: لقد وردت عدة روايات حول تسمية توات، وتضاربت الأقوال بين الرواية المؤسسة على أساس علمي يعتمد على التحليل المنطقي لأصل التسمية، وأهم هذه الروايات رواية أبي عبد الله الأنصاري صاحب كتاب فهرست الرصاع الذي يرى أن توات اسم أمازيغي، لأحد البطون المنحدرة من قبيلة الملثمين، سكان الصحراء، أما عبد الرحمن السعدي صاحب كتاب تاريخ السودان فيرى أن التسمية ترتبط بقصة سلطان مالي كنكان موسى[4] في رحلته إلى الحج، حيث أنه مر بالمنطقة؛ فأصابه وجع في رجله، وكان تعليل السعدي أن ذلك في لغة سنغاي يعني توات.

أما مارتان (**Martin**) فيرى أن كلمة توات تعود في أصولها إلى كلمة "**ouasis**" الإغريقية[5]، وتعني الواحة، وهي مركبة من مقطعين، "**ou**" الذي يتطابق "**oua**" الامازيغية الذي مفرده يتم بإضافة الحرف الأمازيغي" ث"، أي "**t**" لطرفي المفردة "**oua**" على لهجة زناتة، فتصبح "**touat**" بمعنى الواحة في اللغة الامازيغية، وإلى ذلك يذهب روكليس (**Roclesse**) وماندوفيل (**Mandoveil**) حيث أخذ الأول برواية مارتان، الذي اعتبر توات "كلمة أمازيغية على لهجة زناتة"، بينما ذهب الثاني إلى اعتبار أن المصطلح أمازيغي ولكن على لهجة صنهاجة، كما أنها لا تعني الواحة[6]، وإنما أطلقه توارق صنهاجة على المنطقة الممتدة على طول واد مسعود، الذي هو امتداد لواد الساورة.

في حين يذهب محمد بن عومر البداوي إلى أن عقبة بن نافع الفهري عند غزوه بلاد المغرب، وأثناء عودته بواد نون ودرعة وسجلماسة، ولما وصلت خيله توات سنة 62 هـ/681 م، سألهم عن هذه البلاد أي توات، هل تواتي لنفي العصاة الخارجين على سلطته؟ فأجابوه بأنها تواتي؛ فانطلق اللسان بذلك، أما محمد بن عبد الكريم البكراوي فقال إن القائد علي بن الطيب والطاهر بن عبد المؤمن كانا يقبضان الأتوات على أهل توات عام 595هـ/1169م فعرف أهل هذا القطر بأهل الأتوات؛ فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، فصارت تدعى توات. وأما رواية مولاي أحمد الإدريسي الطاهري فتتوقف عند المعنى اللغوي الظاهري، على أن المنطقة كانت تواتي للعبادة[7].

أما أحدث دراسات الإتيمولوجيا (l'étymologie) الجزائرية،التي فككت الجذر "aua-w" فترى أن كلمة توات في اللغة الأمازيغية تطلق على الأماكن المنخفضة؛ فتوات الجسم مثلاً هو الجزء الداخلي الذي يقع تحت القفص الصدري، كما أن ثنايا أمعاء الحيوان يطلق عليها توات[8].

وعليه فإن الأرجح في رأينا أن المصطلح يعود إلى فترة غلبة قبائل أمازيغ صنهاجة وزناتة على المنطقة، أما قبل ذلك فقد يكون له اسم على لغة الجيتول قدماء التوارق والليفيتاي، الذين غلبوا على الإقليم قبل صنهاجة وزناتة، وليس أدل على ذلك من أن أسماء القصور اليوم معظمها أمازيغية زناتية، وعليه فمادام الفرع (القصور) زناتي، فالأولى أن يكون الأصل (توات) أمازيغياً بلهجة توارق صنهاجة أو زناتة.

3. توات في كتابات الرحالة قبل القرن التاسع عشر: ورد ذكر توات في عدد من المصادر التاريخية، وأقدمها كتابات هيرودوت (Hérodot)، حيث أورد المؤرخ الفرنسي مارتان (Martin) أن مناطق توات ورد وصفها في كتب هيرودوت القديمة، وأن تعميرها تم على يد قبائل الجيتول (Gétule)، وهم قدماء الأمازيغ الذين استوطنوا شمال إفريقيا والصحراء، وأقاموا القصور الأولى بالهضبة الصحراوية، وشيدوا أكثر من مائة وخمسة (105) قصراً، أهمها قصر ملوكة وقصر بوده، كما تحدث عن تمنطيط واعتبرها عاصمة المنطقة، وذلك خلال الفترة الممتدة من ما قبل التاريخ إلى القرن الأول الميلادي، حيث سكن توات التوارق، ثم وفد إليها اليهود بعد ذلك فأقاموا بها، وبدايةً من القرن 6م تمكن أمازيغ زناتة من بسط نفوذهم عليها، كما وردت الإشارة إلى توات دون ذكر لأسماء مناطقه عند كل من الجغرافي ابن حوقل والإصطخري واليعقوبي[9].

أما الرحالة الذين ذكروا المنطقة بأسمائها الحالية، فهم ابن بطوطة (ت779هـ/1377م) حين زار المنطقة وقال عنها: "وقصدت السفر إلى توات، ورفعت زاد سبعين ليلة إذ لا يوجد الطعام بين تكدا وتوات"، ويضيف في وصف المنطقة: "ودخلنا بودة وهي من أكبر قصور توات، وأرضها رمال وسبخة، وثمرها كثير ليس بطيب، لكن أهلها يفضلونه على تمر سجلماسة، ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت، وأن أكثر أكل أهلها التمر والجراد" [10]، كما ذكر ابن خلدون (ت808هـ/1406م) توات حيث اقتصر اسم توات عنده على المناطق الواقعة بمحاذاة وادي مسعود، الذي هو امتداد لوادي الساورة، أي على الجزء الغربي فقط لمنطقة توات الكبرى، وقد ذكر توات في خضم حديثه عن السودان فقال: "وفواكه بلاد السودان تأتي من توات وتيكورارين وورکلا"[11]. أما الحسن الوزان (ت957هـ/1550م) الذي زار الصحراء مطلع القرن 16م، ولاحظ أن ساكنيها إلى غاية تلك الفترة من قبائل الأمازيغ النوميديين، وعددها خمسة، كما وصف الوزان تسابيت بأنها: "إقليم مأهول في صحراء نوميديا، على بعد مائتين وخمسين ميلا شرق سجلماسة، ومائة ميل من الأطلس، يضم أربعة قصور وقرى عديدة"[12].

ومن الرحالة الذين زاروا توات في العصر الحديث وسجلوا ملاحظاتهم عنها العياشي (ت1090هـ/1676م) في رحلته خلال القرن 17م، وقال عنها: "ثم ارتحلنا منها (أي بني عباس) ودخلنا إلى أول عمالة توات وهي قرى تسابيت، وزرنا بأول قرية منها قبر الولي الصالح المتبرك به حيّاً وميتاً سيدي محمد بن صالح المعروف بعريان الرأس...، وأقمنا بها ستة أيام، ووجدنا التمر فيها رخيصاً" [13]، وقد أبرز الفشتالي (ت1031هـ/1622م) الأهمية والشهرة اللتين حظيت بهما منطقة توات وميزاتها السكنية والسكانية، حين وصفها قائلا: "هذا الإقليم المفرّع إلى قطر توات، وهو أوسع وطناً وأفسح مجالاً وأقرب للسودان اتصالاً وجواراً وإلى قطر تيكورارين، وهو أعظم اشتهاراً وأعرف نقيباً وأشدّ شوكة وأخشن جانباً، وأعظم أقاليم المغرب وأكثرها أمماً وأفسحها خطةً، انتظم عمرانه واتصلت قصوره، وتراصفت نخيله على مسافة ثلاثين مرحلة أو أكثر... ". [14]

4. دوافع الاستكشاف الفرنسي لتوات خلال القرن التاسع عشر: لقد اختلفت دوافع الرحلات الاستكشافية باختلاف أصحابها؛ فمن بين الرحالة من كانت تدفعه المغامرة نحو ارتياد المجهول واكتشاف الغريب، ومنهم من يدفعه البحث عن مصادر الثروة والمال وتحصيل المكاسب المادية، ومن بين المستكشفين والرحالة من تدفعه دوافع دينية، ويمكن تلخيص دوافع البعثات الاستكشافية الفرنسية إلى توات خلال القرن التاسع عشر في النقاط التالية:

- جمع كم هائل من المعلومات حول الجوانب الإنسانية والعلمية: كان الهدف الأساسي من إرسال بعثات استكشافية فرنسية للمنطقة التعرف على هذا المحيط الواسع والمجهول من الرمال الصفراء بواحاته الخضراء هنا وهناك، ومحاولة التعرف على الإمكانات الاقتصادية والبشرية لاستغلالها واستثمارها، ومحاولة استكشاف المظاهر الجغرافية والطبيعة والمناخية والطبوغرافية والطاقة المائية الجوفية، ودراسة المجموعات السكانية وعاداتها وتقاليدها وتاريخها السياسي والحضاري، وأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، بهدف استغلالها مستقبلاً لخدمة المشروع الاستعماري[15].

- ظهور الجمعيات الجغرافية وصدور المجلات: كان لظهور الجمعيات الجغرافية في فرنسا دور كبير في دعم واحتضان المستكشفين والرحالة، وقد تمثل ذلك الدعم والاحتضان في تقديم التمويلات اللازمة لبعض المستكشفين والرحالة، وفي تخصيص الجوائز المالية لمن يسبق إلى اكتشاف منطقة ما، فضلاً عن تزويد الرحالة والمستكشفين بالتوجيهات

والإرشادات اللازمة، والأدوات العلمية الضرورية، وأهم تلك الجمعيات التي ظهرت في فرنسا خلال القرن التاسع عشر "الجمعية الجغرافية بباريس" سنة 1821م، و"الجمعية الأنثربولوجية بباريس" سنة 1859م، وجمعيات جغرافية أخرى في مدينة ليون 1873م، وبوردو 1874م، ومارسيليا 1876م، وليل 1882م، وأنشأ الفرنسيون "جمعية جغرافية في الجزائر" سنة 1879م[16].

كانت هذه الجمعيات تتلقف تقارير ورحلات المستكشفين، وتسارع إلى نشرها في المجلات المتخصصة التي كانت تصدر في ذلك الوقت، ولعل أهم المجلات التي ظهرت خلال القرن التاسع عشر "المجلة الجغرافية الباريسية" التي بدأت في الظهور سنة 1821م، ومجلة "حول العالم" التي بدأت في الظهور سنة 1843م، وأخذت تسميات متعددة على مدار القرن، حيث أصبحت تسمى "المجلة الاستعمارية" بين سنتي 1859و 1860م، و"المجلة البحرية" التي ظهرت سنة 1896م، وقد أصدرت غالبية الجمعيات الجغرافية مجلات خاصة بها[17].

- الدافع الاستراتيجي في المنطقة: احتدم الصراع بين القوى العظمى لوضع خطط مستقبلية في الصحراء، ومن الأطراف الفاعلة نجد بريطانيا وفرنسا حيث ظلت هذه الأخيرة المنافس العنيد لنشاط الإنجليز وتوسعهم الاستعماري خارج أوروبا، والبحث عن مجال حيوي في قارتي إفريقيا وآسيا، كل ذلك جرّ الفرنسيين إلى أسلوب الاستكشاف والمغامرة والبحث لخدمة منظومتهم الاستعمارية، وهو ما عبر عنه وزير الحربية الفرنسي مارشال سولت بقوله: "لا يجب إهمال الصحراء الجزائرية، وذلك لما تقدمه لنا من ثروة، والتي تعطي لنا بعداً ضرورياً سياسياً وتجارياً، ويجب أن يسود حكمنا فيها...؛ حيث لا يمكن فتح علاقات تجارية من داخل إفريقيا إلا عن طريق السيطرة والهيمنة"[18].

- التوسع بأقل التكاليف العسكرية والمادية: كان حلم الفرنسيين أن يتمكنوا من فرض سيطرتهم على الصحراء الجزائرية لفرض الاستقرار في بقية مستعمراتهم الإفريقية، وهو ما صرح به النقيب هنري وولف (henri wolff) سنة 1844م بقوله: "لن تكون مستعمراتنا الإفريقية هادئة حقيقية إلا حينما يرفرف العلم الفرنسي في الصحراء الكبرى على قصر عين صالح"[19].

- تحضير الوسائل الملائمة لمواجهة سكان المنطقة: بدأت فرنسا خلال النصف الثاني من القرن 19م تفكر جدياً في احتلال الصحراء، حيث شرعت في إقامة مؤسسات اقتصادية،

وإنشاء مراكز تجارية في كل من توات وتيدكلت، وبدأت تكثف من دراستها لهذه المناطق للتعرف أكثر على جوانبها البشرية والاقتصادية والمائية؛ فقد صرح فرناند فورو بعد بعثته الاستكشافية إلى منطقة الطوارق سنة 1893م قائلاً: "إن أهم تساؤل بالنسبة لكل الفرنسيين الذين يهتمون بالصحراء هو ماذا نعمل من أجل أن تصبح الصحراء تحت قبضتنا؟ وما هي أهم الوسائل لتحقيق ذلك، أن نضغط ونضاعف جهود التوغل في الصحراء، ونسعى لاحتوائها، كما يجب إنشاء مجموعة من المراكز المتقدمة في مناطق مختارة بعناية، والتي تكون على اتصال مباشر مع السكان الذين نرغب في التواصل معهم واحتوائهم، هذه المراكز يجب أن تمثل خطاً دفاعيا متيناً أمام مقاومات الصحراويين"[20].

5- البعثات والرحلات الاستكشافية الفرنسية لتوات خلال القرن التاسع عشر: رغم أن الانجليز والألمان كانوا سباقين لاكتشاف القارة الإفريقية، وخوفاً من استحواذ البلدين على القارة السمراء شجّعت فرنسا مواطنيها للقيام برحلات هدفها استكشاف الأجزاء غير المعروفة، وذلك بغرض التمهيد للتوسع الفرنسي في المناطق الصحراوية، وبحكم كثرة الرحلات الاستكشافية في الصحراء الإفريقية الكبرى؛ فإننا سنقتصر على نشاط الرحالة والمستكشفين الفرنسيين أو الذين بعثتهم فرنسا، ووصلوا إلى توات أو عبروا منها وكتبوا عنها.

1.5 روني كايي (René Caille): يعتبر أول المستكشفين الفرنسيين الذين توغلوا في أعماق الصحراء الإفريقية[21]، انطلقت رحلته من فرنسا سنة 1816م على متن باخرة "لالوار" التي توجهت إلى السنغال، وقد استكشف منطقة توات عام 1828م في رحلته باتجاه تمبكتو التجارية ما بين سنتي 1827 و1828م مدعياً للقبائل التي يمر بها في طريقه أنه مصري تربى في فرنسا منذ صغره، حيث دخل توات في شهر جويلية واستقر في مدينة تيمي بتوات الوسطى حتى شفي من مرضه، وسجل ملاحظات وأنجز رسومات عن توات، وقدم للمصالح المختصة معلومات هامة عن المنطقة ساعدتها فيما بعد في عمليات احتلال المنطقة[22].

تعتبر رحلة روني كايي أول رحلة فرنسية مهمة بالجنوب الغربي الجزائري بما حصلت عليه من معلومات جغرافية وحضارية عن المنطقة، ولعل أول ذكر لمنطقة توات كان في هذه الرحلة حيث لم ترد إشارات عن هذه المنطقة من قبل لدى أي مستكشف فرنسي، وقد نال جائزة الجمعية الجغرافية الباريسية التي قدرت بـ10آلاف فرنك فرنسي.

2.5 رحلة دوماس Daumas: كاتب فرنسي التحق بالجزائر سنة 1835م حيث عين قنصلاً في دولة الأمير عبد القادر بمعسكر، ثم مديراً للشؤون العربية بقسنطينة، قام برحلة استكشافية كبيرة في ربوع الصحراء الجزائرية بين سنتي 1843- 1845م بتشجيع من الجنرال بيجو[23]، حيث قام باستكشاف الجنوب الشرقي للجزائر أولاً، ثم توجه إلى الجنوب الغربي لاستكشافه، ووصل إلى توات عبر رحلتين، حيث انطلق في الأولى من الجزائر العاصمة نحو الجنوب الغربي، ثم فقيق المغربية ودخل توات، وفي الرحلة الثانية توجه من الجزائر العاصمة عبر غرداية والمنيعة، ثم دخل توات عن طريق عين صالح، حيث وصف أهم الطرق إلى توات ووصف قصور المنطقة، وقد قسم توات إلى خمس مقاطعات (مهارزة، القرارة، أوقروت، توات، تيدكلت)، كما وصف قبائل المنطقة وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية[24].

استطاع دوماس أن يتغلغل في أوساط المجتمع التواتي، وأن يعرفه عن قرب من حيث العادات والتقاليد وطرق التفكير و المأكل والملبس، وحدد مواطن قوته وضعفه، واستعمل كل تلك الخبرة والمعارف في تحقيق أهداف دولته الاستعمارية، ودون ملاحظاته في عدة مؤلفات أهمها "الصحراء الجزائرية".

3.5 رحلة الضابط دو كولومب (De Colomb): تعتبر رحلة القائد الأعلى لدائرة البيض دو كولومب بأمر من الجنرال دوريو(doryo) قائد شعبة معسكر، من أبرز الرحلات التي وجهتها فرنسا إلى الجنوب الغربي الجزائري عامة وتوات خاصة، والتي تكونت في غالبيتها من قناصة دائرة البيض التابعين للجيش الفرنسي[25]، وبعض رجال الشعانبة كمرشدين في مسالك الصحراء الوعرة، وكانت هذه البعثة تحت حماية زعيم أولاد سيد الشيخ الشراقة الخليفة سيدي حمزة، وقد انطلقت الرحلة في ديسمبر 1856م واستغرقت 25 يوما، وفي بداية جانفي 1957م دخلت البعثة منطقة توات، واكتشفت قصور قورارة وتوات الوسطى وتيدكلت.

ورغم قصر مدة هذه الرحلة إلا أنها تركت انطباعات حسنة لدى القائمين عليها حول منطقة توات، على الرغم من تسجيلهم للصعوبات الكبيرة التي ستواجه الجيش الفرنسي لاحتلال المنطقة، وذلك راجع إلى الظروف المناخية والتضاريسية المتمثلة في الرمال والحرارة، حيث قال عنها دو كولومب: "أنها عبارة جزر مخضرة وسط محيط من النار"[26].

4.5 رحلة الرائد كولونيان(Colonien) **والملازم بوران**(Borin): في نهاية سنة 1860م وبمساعدة السي حمزة دائما، قام الضابطان التابعان لدائرة البيض مع فيلق عسكري بالانضمام إلى القافلة السنوية التي تنطلق من دائرة سعيدة إلى الأبيض سيدي الشيخ نحو توات من أجل جلب التمور مقابل بيع الحبوب والأغنام، وتضم هذه القافلة حوالي عشرة آلاف جمل، وأكثر من ثلاثة آلاف رجل وامرأة، وحوالي 16 ألف من الأغنام[27]، وعند وصول القافلة إلى توات وبالضبط إلى تيميمون عاصمة قورارة، لم تفتح لهم أبواب القصور من طرف جماعة القصبة إلا إذا ابتعد الفيلق الفرنسي مسافة يومين، حينها غادر الضابطان تيميمون إلى تورسيت، ثم إلى تيمي وتوات الوسطى، ليجدا نفس الاستقبال من طرف ساكنة القصور؛ فتراجعا إلى القسم الأعلى لواد الساورة، ومنها إلى الشمال بدل التوغل نحو الجنوب[28].

رغم أن رحلة الضابطين إلى توات كانت فاشلة إلا إنهما تمكنا من وضع خرائط للمناطق التي حلا بها، وبخاصة منطقة توات.

5.5 رحلة جرهارد رولفس(Gerhard Rohlfs): من أصل ألماني، انخرط في فرقة اللفيف الأجنبي الفرنسي التي كانت تعمل في الجزائر، وتمكن من القيام بعدة رحلات لاستكشاف الصحراء الإفريقية بما فيها توات بين سنتي 1862- 1867م، وقد تعلم اللغة العربية، وتنكر في زي صحراوي الأمر الذي سمح له بأن يحصل على معلومات هامة ودقيقة لم تتوفر لغيره من الأوروبيين، وقد قام رولفس بأربع رحلات تهمنا منها الرحلة الثانية سنة 1864م[29]، والتي انطلق فيها من طنجة إلى واد الساورة فإيغلي ثم بني عباس، ثم دخل واحات توات الوسطى، وفي 1864/09/17م دخل عين صالح عاصمة تيدكلت[30].

ولقد نجح رولفس في اختراق الصحراء الكبرى من المغرب الأقصى حتى ليبيا عبر الصحراء الجزائرية، وبحكم إتقانه للدارجة المحلية فقد تحصل على معومات مهمة حول توات استفاد منها الفرنسيون في احتلالهم لتوات؛ فقد أوصى في تقريره للسلطات الفرنسية بنقل حدودها إلى نهاية واد الساورة، وبالتالي ضم منطقة توات إلى السلطة الفرنسية.

6.5 رحلة بول صوليي Paul Soleillet: كان صوليي شغوفاً بزيارة توات خاصةً عين صالح، بدأ رحلته من مرسيليا في أواخر سنة 1872م إلى الجزائر العاصمة[31]، وبعد إنهاء استعداداته توجه إلى عين صالح عبر طريق الأغواط- غرداية- متليلي، وفي مطلع سنة 1873م دخل ورقلة ثم المنيعة؛ فاستراح بها مدة يومين، وكانت بعثته تتكون من ستة وعشرين شخصاً

وعشرة جمال وثلاثة خيول، وغادر المنيعة يوم 27 فيفري 1873م متوجهاً جنوباً إلى عين صالح، وفي 6 مارس 1873م وصل مشارف عين صالح لكن لم يسمح له بالدخول؛ فاضطر صولي للرجوع ولم يستكمل رحلته[32].

ورغم أنه لم يسمح له بالدخول إلى عين صالح؛ فقد قدم في كتابه معلومات هامة حول المناطق الصحراوية التي استكشفها، وحول هضبة تادمايت وما جاورها وتيدكلت، والتي استفادت منها السلطات الفرنسية في احتلالها للجنوب الغربي وتوات خاصة، وكان بول صولي يرغب في افتتاح وكالة تجارية بتوات.

7.5 بعثة مارسال بالات (Marcel Palat): هو ضابط فرنسي متخرج من مدرسة سان سير (Saint-cyr) العسكرية، أشتغل كضابط في الفرقة العسكرية لوهران نظرا لحبه للغة العربية التي أستطاع استيعابها؛ فعين كملحق للمكتب العربي بسعيدة، وكانت له رغبة في استكشاف توات؛ فانطلق في رحلته سنة 1885م من الجزائر العاصمة إلى البيض، ومنها إلى المنيعة، ودخل توات عبر تنقورارين بتاريخ 22 جانفي 1886م[33]، ووصل إلى تنركوك عن طريق تعنطاس، وتفطن السكان لجنسيته لأنه لم يكن يحسن العربية جيداً، ثم توجه إلى دلدول والتقى بالشيخ بوعمامة، وتوجه بعدها إلى عين صالح، وفي الطريق تعرض للاغتيال بين عين صالح وعين بلبال في 21 فيفري 1886م[34].

وبذلك يكون بالات قد استكشف الطريق الرابط بين البيض وعين صالح، كما تعرف على قصور وواحات ومدن الطريق المار عبر توات، وعرف النشاط التجاري الذي يتميز به هذا الطريق.

8.5 بعثة فلامون Flamand: تشكلت بعثة فلامون في نوفمبر 1899م، وأشرفت عليها وزارة الشؤون العامة والمستعمرات، ودعمتها الحكومة الفرنسية، غادرت البعثة ورقلة يوم 28 نوفمبر 1899م متوجهة إلى عين صالح، ولما علم بها سكان عين صالح استعدوا لمقاومتها وقاموا بهجوم مفاجئ عليها يوم 28 ديسمبر 1899م، وبعد تعرض البعثة لهجمات متكررة خلال مكوثها بالقصر قرر الوالي العام لافريار تدعيمها بقوات إضافية؛ فأمر القائد بومقارتان القائد الأعلى لدائرة المنيعة بالتحرك نحو عين صالح على رأس فرقة عسكرية، والتي وصلت عين صالح يوم 18 جانفي 1900م، واندمجت مع حملة فلامون، وبذلك تمكن فلامون من احتلال عين صالح سنة 1900م[35].

ورغم أن حملة فلامون بدأت في شكل بعثة استكشافية إلا أنها تحولت إلى حملة عسكرية بانضمام قادة عسكريين إليها[36]، وبعد نهاية حملته على المنطقة قدّم فلامون عرضاً للوالي العام شمل جميع ملاحظاته الجيولوجية والجغرافية والطوبوغرافية، وتحدث فيه عن الريّ في توات والإمكانات الاقتصادية للمنطقة، وعلاقة فرنسا بالمنطقة.

ختمت فرنسا القرن التاسع عشر بحملة فلامون التي احتلت بها عين صالح، وهكذا تمكن الفرنسيون مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الميلادي من احتلال كل واحات توات من تيدكلت إلى قورارة وتوات الوسطى، واتخذت من عين صالح مركزاً للقيادة العسكرية لجنوب الجزائر.

يتبين لنا أن الرحلات والبعثات الاستكشافية الفرنسية التي وصلت توات كان ظاهرها علمياً، حيث ارتدت لباس الاستكشاف والمعرفة والمغامرة، والاطلاع على الأوضاع السياسية، وجمع معلومات عن الإمكانات البشرية والاقتصادية للمنطقة، غير أن تلك النتائج والمعلومات لم تكن مقصودة لذاتها، وإنما كانت الغاية منها تنفيذ مشاريع اقتصادية وأخرى توسعية، وحتى يتمكن القادة العسكريون من وضع وتحديد إستراتيجية متكاملة للغزو والاحتلال، ويؤكد ذلك الطبيعة العسكرية لتلك الحملات، سواء من حيث قادتها حيث اسند معظمها إلى ضباط عسكريين، أو من حيث تكوينها حيث تشكلت من جنود في قوات الجيش الفرنسي.

6- أهمية هذه الدراسات الاستكشافية في احتلال منطقة توات: كانت البعثات الاستكشافية الفرنسية لتوات في أغلب الأحيان تتكون من ضباط عسكريين حركتهم جهات رسمية كالحاكم العام ووزارة الأشغال العمومية، أو تعاونت هذه الجهات مع جمعيات مختصة في فرنسا لانتداب مستكشفين من أجل أغراض اقتصادية وعسكرية توسعية، وكانت تقارير هذه البعثات ترفع إلى الجهات الحكومية الوصية خاصة العسكرية منها التي استفادت من تقارير وتوصيات المستكشفين خلال القرن التاسع عشر في السيطرة على منطقة توات مع مطلع القرن العشرين؛ فجاءت تقاريرهم مشجعة للقادة العسكريين والمدنيين على ضرورة احتلال هذه المنطقة، ويمكن تحديد أهم ما تضمنته تلك الدراسات وأنجزته تلك البعثات، وساعدت فرنسا في السيطرة على توات فيما يلي:

- تقديم معلومات حول الإمكانات الاقتصادية لتوات: خلال قيام المستكشفين برحلاتهم إلى الجنوب الجزائري وتوات خاصة اهتم الفرنسيين بدراسة الإمكانيات الاقتصادية، والخيرات

التي تتوفر عليها المنطقة، والمظاهر الجغرافية والطبيعية والتضاريسية والمناخية ومصادر المياه، وذلك لاستغلالها واستثمارها؛ فهناك من درس جغرافية توات ومناخها وأساليب السقي والإنتاج الفلاحي والأوضاع التقليدية العمرانية، كما درسوا الجوانب العلمية والفلكية؛ فمثلا دو كولومب الذي زار توات قال عنها في تقريره: "إنها عبارة عن جزر مخضرة وسط محيط من النار"[37].

- وضع المعلومات في يد الآلة العسكرية الفرنسية: اهتم الفرنسيون بإنشاء مراكز عسكرية أمامية في أعماق الصحراء خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر لتنظيم عمليات الغزو والتوسع الاستعماري، كما عملوا على تنظيم حملات عسكرية استعانوا في معظمها بمستكشفين، كما أن حملات أخرى اعتمد قادتها في بلوغ المناطق الصحراوية التي رغبوا في احتلالها على الخرائط والدراسات التي أنجزها المستكشفون، أو سلكوا الطرق التي استكشفت من قِبَلهم، وقد شهد العقد الأخير من القرن التاسع عشر العديد من الحملات العسكرية الفرنسية إلى مختلف أرجاء الصحراء الجزائرية[38]، أهمها حملة فلامون (Flamand) سنة 1900م لاحتلال توات بداية بمدينة عين صالح عاصمة إقليم تيدكلت، هذه الحملة التي انطلقت في البداية على شكل بعثة استكشافية في نوفمبر 1899م.

- تحقيق الهدف التجاري للاستعمار الفرنسي: فالموقع الجغرافي الهام لتوات ووجودها في قلب الصحراء الجزائرية يشكل إحدى حلقات الربط بين مختلف المدن التجارية الإفريقية، ونقطة التقاء وعبور القوافل التجارية، سواء كانت متجهة جنوبا نحو بلاد السودان، أو شمالاً نحو الشمال الجزائري، أو شرقاً نحو غدامس وغات، أو غرباً نحو تافيلالت؛ فهي تقع في منتصف الطريق الرابط بين الجزائر وتمبكتو، وهو ما يدل على المكانة التي كانت تحتلها توات خلال القرن التاسع عشر[39]، لذلك قرر الفرنسيون التوسع في أعماق إفريقيا، وذلك بالوصول إلى توات ومنها إلى تمبكتو، وجعلها مناطق للنفوذ الفرنسي، حيث تعتبر منطقة إستراتيجية لفرنسا ستفتح لها آفاقا كبيرة على إفريقيا.

وقدم العديد من المستكشفين الفرنسيين معلومات جد مهمة للسلطات الفرنسية حول هذه الطرق التجارية التي مروا بها، مثل دوماس الذي لخص دراسته في كتاب بعنوان "الصحراء الجزائرية" سنة 1845م، و"دو كولومب" الذي ألَّف كتاباً بعنوان "الصحراء الكبرى" سنة 1858م.

واستنادا لتلك التقارير أسست فرنسا سنة 1880م لجنة مختصة لتنظيم وتطوير تجارة القوافل العابرة بين أسواق الشمال وأسواق توات[40]، بهدف توجيه القوافل المتجهة إلى المغرب نحو الأسواق الفرنسية في الجزائر، واستطاعت هذه اللجنة تحقيق نتائج سياسية واقتصادية ساهمت في سيطرة الفرنسيين على المنطقة.

- المخاطر الأمنية على الاستعمار الفرنسي: اتخذ العديد من رجال المقاومة الشعبية وزعمائها من توات ملاذاً ومعقلاً وجهة خلفية للاعتصام بها، بعدما اضطرتهم لذلك أسباب عدم تكافؤ موازين القوة بينهم وبين العدو الفرنسي، وقلة الموارد والمعدات العسكرية؛ فأصبحت بذلك هذه المنطقة ميداناً لتنظيم خطوط الدفاع، وإعداد خُطط الهجوم ضد القوات الفرنسية بالتعاون مع سكان المنطقة، ولما زار الرحالة جيرهارد رولفس توات سنة 1864م، شاهد مدى فعالية مشاركة أهل الجنوب للشمال؛ فقال في ذلك: "قبل كل شيء على الفرنسيين أن ينقلوا حدودهم إلى نهاية وادي الساورة؛ فمن هناك بالضبط تبدأ كل المصاعب ما دام الفرنسيون لم يستولوا على هذه الحدود الطبيعية، ولن يكون هناك أي هدوء في جنوب مقاطعة وهران"[41].

إن احتلال توات يضمن لفرنسا احتلال كامل البلاد، وذلك لأن الثورات الشعبية التي تندلع في الجزائر من فترة لأخرى أصبحت تجد في واحات هذه المنطقة معقلاً يفر إليه المجاهدون ليحتموا فيه، ويستعيدوا الكرة للهجوم على قوات الاحتلال مرة أخرى، كما وقع للثائر الشيخ بوعمامة الذي جاء إلى هذه المنطقة التي لم يسطر عليها الفرنسيون مما جعله يرتب فيها أحواله، وينظم فيها جيوشه، وكان له تأثير واسع في المنطقة، ولهذا كانت فرنسا تدرك أنه لن يهدأ لها بال في بقية المناطق الصحراوية والجزائر عامة ما لم تسيطر على توات.

7- إقدامُ الفرنسيين على احتلال توات: قدّم المستكشفون الفرنسيون خلال القرن التاسع عشر خدمة جليلة للساسة الفرنسيين من أجل احتلال واحات توات، لأنهم جمعوا كمية ضخمة من المعلومات عن كل ما يتعلق بسكان هذه المنطقة وأهميتها الاقتصادية، كما قدموا للعسكريين مختلف الخرائط الجغرافية والطوبوغرافية للمنطقة، وبفضل هذه المعلومات تمكنت جيوش الاحتلال مع نهاية القرن التاسع عشر من تهيئة الجانب المادي الذي يخول لها الاستيلاء الكامل على المنطقة، رغم المقاومة الباسلة التي قام بها سكان هذه المنطقة؛ حيث وصلت أول حملة إلى إقليم تيدكلت في ديسمبر 1899م، ثم إقليم قورارة في

جانفي 1900م، وتمت السيطرة على توات بالحملة على إقليم توات الوسطى في شهر جويلية 1900م.

1.7 احتلال تيدكلت: كانت بعثة فلامون إلى منطقة تيدكلت وعين صالح بداية الاستيلاء والاحتلال التي أشرفت عليها وزارة المعارف العمومية وشؤون المستعمرات، كما أمرت الحكومة النقيب بان (Pein) بحمايتها، كما أعطى وزير الحرب أوامره إلى النقيب جيرمان (Germain) بالتحرك مع فرقته الصحراوية تجاه البعثة، حيث غادرت البعثة مدينة ورقلة يوم 28 نوفمبر 1899م متجهة إلى عين صالح، وفي 26 ديسمبر 1899م وصلت إلى منطقة فقارة الزوى ثم واحة إيقسطن[42]، ولما اكتشف أهالي عين صالح النوايا الخفية لهذه البعثة، استنفروا للكفاح والجهاد، وأعدوا ما استطاعوا من القوة والشجاعة والإيمان والتضحية في سبيل الأرض والعرض والوطن، وتجمعوا تحت قيادة المجاهد الحاج المهدي أباجودة[43]؛ فبدأ الزحف صبيحة يوم 28 ديسمبر 1899م وكأنهم ذاهبون إلى نصر محقق.

بعثت السلطات الفرنسية إلى الحاج المهدي تطلب منه السماح لأربعين فرنسياً للمرور وسط واحة تيدكلت؛ فعقد هذا الأخير اجتماعا مع أعيان البلاد للنظر في الطلب الفرنسي، وكان إجماعهم على الرفض وطلب الابتعاد عن واحتهم، إلا أن رد الفرنسيين كان بعملية استفزازية؛ حيث أطلقوا خلالها النار في الهواء لإزعاج السكان وإرهابهم، بخاصة لما علموا أن فرقة الصبائحية الصحراوية بقيادة النقيب جرمان في طريقها لدعمهم مما أثار غضب السكان؛ فقرروا الخروج لتأديب هذه البعثة، وبذلك أعلن الحاج المهدي أبا جودة الجهاد، وانضم إليه عدد كبير من المجاهدين من مختلف قصور عين صالح من الساهلتين (الفوقانية والتحتانية) وحاسي الحجر وفقارة الزوى والبركة وإينغر.

جرت عدة معارك بين الجيش الفرنسي وسكان المنطقة، وأهم هذه المعارك معركة الفقيقيرة قرب عين صالح يوم 27 ديسمبر 1899م، ومعركة الدغامشة يوم 05 جانفي 1900م[44]، ثم معركة إينغر في جانفي ومارس 1900م، وبعد سقوط إينغر توجهت القوات الفرنسية لاحتلال مدينة تيط يوم 23 مارس 1900م، ثم احتلت أقبلي وأولف يوم 28 مارس 1900م.

2.7 احتلال قورارة: بعد استكمال السيطرة على تيدكلت توجهت القوات الفرنسية للسيطرة على الجزء الشمالي من توات، وهو إقليم قورارة وعاصمته تيميمون؛ فأرسلت يوم 27 أفريل 1900م العقيد مينيسترال (Menestrel) لإخضاع قصور قورارة الواقعة شمال

توات، ويتألف هذا الطابور الذي أرسلته فرنسا من ثمانمائة (800) جندي ومدفعي ميدان، انطلق من قاعدة المنيعة، وقاومه أهل تيميمون، وصمدوا أمام نيران العدو، وأوقفوا الزحف مما اضطر القائد إلى طلب يد المساعدة والمدد؛ فوصلت فرقة تتكون من أربعمائة (400) جندي من البيض رجّحت كفة الجيش الفرنسي على قوات المجاهدين، ودخلت القوات الغازية الفرنسية يوم 12 ماي 1900م مدينة تيميمون[45].

وأخضع الجيش الفرنسي بقية القصور المنتشرة في المنطقة؛ حيث تم إخضاع دلدول يوم 31 ماي 1900م، ثم تبعتها خطوات حاسمة كلف بها الجنرال سيرفيار (SERVIERE) للقيام بمهمة إخضاع إقليم تنجورارين الذي أضحى تحت سيطرته، وانطلقت هذه الحملة العسكرية من الجزائر العاصمة برفقة مساعديه الرائد لاكير (Laquire) والنقيب دوبلي سيكس (Dublisixe) وريمون (Raymond) والملازم بيليني (Pellenier)، واستفاد الجنرال كثيراً من معلومات الرحالة الألماني رولفس[46].

3.7 احتلال توات الوسطى: بعد إخضاع إقليم تيدكلت وإقليم قورارة، أصبح إقليم توات الوسطى مفتوحاً أمام القوات الفرنسية من الجهتين الشرقية والغربية، وبالتالي أصبح إخضاع الإقليم مسألة وقت فقط، ودخلت الحملة التي كان يقودها الجنرال سيرفيار بجيش قوامه ثمانمائة (800) جندي وأربعة مدافع، إلى تيمي عاصمة إقليم توات الوسطى يوم 30 جويلية 1900م[47]، وانبهر بسحر وجمال هذه الواحة، وأرسل البرقيات إلى كل من الوالي العام والجنرال قائد الفيلق التاسع يخبرهم بدخوله إلى توات الوسطى ونجاح المهمة، ثم شرع في إخضاع القصور المجاورة: أسبع ثم تسابيت ثم كابرتن ثم مراقن ثم بودة، وأولى مجموعة تيمي أهمية بالغة باعتبارها مفتاح توات.

بينما انطلقت حملة أخرى من إقليم تيدكلت مكونة من ثلاثمائة (300) جندي متوجهة لمساعدة القوات الفرنسية في المنطقة، على أن تلتقي القوتان عند بلدة تيمي؛ فتم وضع إقليم توات الوسطى بين فكي كماشة[48]، وأمام هذه القوة الضاربة لم يتمكن السكان من المقاومة، وبذلك تمكن الفرنسيين من إخضاع المنطقة يوم 10 فيفري 1901م، والتزموا بتعليمات وزير الحربية، والتي نصت على أن تكون المنطقة عسكرية محضة، وفي ظروف مواتية، وتعيين ممثلي الإدارة في الواحات الصحراوية، وبذلك كانت هذه الحملة التي مرت بالإقليم رصد للمعلومات دون خسائر بشرية أو مادية كبيرة.

لم تكن فرنسا تتوقع هذا الإنجاز الكبير، وذلك بالسيطرة على هذه المنطقة الشاسعة والمهمة في هذا الوقت القياسي وبخسائر قليلة، وبالتالي ظهرت البهجة على السلطات الفرنسية التي كرمت فلامون والنقيب بان بأوسمة الشرف نظير المجهودات الكبيرة التي قدمها الضابطان للسلطات الفرنسية في إخضاع المنطقة، وبعد أن تم الإخضاع الكلي للمنطقة شرعت الإدارة الاستعمارية تحت إمرة الجنرال سيرفيار على تنظيم المنطقة من الناحية الإدارية والعسكرية إلى غاية مجيء لابيرين (Laperine) كحاكم عام للأقاليم الصحراوية.

الخاتمة: نستنتج في الأخير أن منطقة توات في الجنوب الغربي الجزائري حظيت باهتمام كبير من طرف الرحالة والمستكشفين الفرنسيين خلال القرن التاسع عشر، الذين تمكنوا من جمع كم هائل من المعلومات والدراسات حول المنطقة، من حيث طرقها الرئيسية وظروفها السياسية والحضارية، وأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية، وتسجيل ذلك في كتبهم وتقاريرهم، غير أن تلك الدراسات لم تكن مقصودة لذاتها، وإنما كان الهدف منها التمهيد لاحتلال المنطقة، حيث أن كل كتاباتهم كانت تصب في هذا القالب، وقد ساهمت بقدر كبير في فتح الأبواب للجنود الفرنسيين الذين تمكنوا بفضل هذه المعلومات الدقيقة من السيطرة على المنطقة مع مطلع القرن العشرين، ومن أبرز النتائج المتوصل إليها:

- لم يكن اهتمام الأوروبيين بتوات وليد القرن التاسع عشر، وإنما ازداد خلال هذا القرن لارتباطه بتلك الرحلات والبعثات الاستكشافية التي قام بها الأوروبيون عامة والفرنسيون خاصة، في الصحراء الكبرى سواء كانوا مدنيين أو عسكريين.

- قامت السياسة الفرنسية في الجزائر وفق مقولة "يجب معرفة الناس للسيطرة عليهم وقيادتهم"؛ فأرسلت فرنسا بعثات استكشافية متتالية إلى منطقة توات مكونة من رحالة وجغرافيين، سجلوا كل ما وقعت عليه أعينهم من معلومات تتعلق بقبائل المنطقة وساكنتها، وبطبيعتها الاقتصادية.

- من أبرز النتائج التي حققتها تلك الرحلات والبعثات الاستكشافية في القرن التاسع عشر على الصعيد السياسي والاجتماعي والاقتصادي والعسكري، تمكين الجيش الفرنسي من ترتيب الأمور المادية للتوغل في المنطقة مع مطلع القرن العشرين، رغم المقاومة التي قام بها سكان المنطقة.

- لا يمكن القول أن تلك الرحلات والبعثات الاستكشافية كانت بريئة، من أجل البحث والعلم فقط؛ فرغم أنها أثرت المكتبات بمعلومات مهمة حول المنطقة، لكن هذه المعلومات كانت موجهة أساساً لخدمة الاستعمار الفرنسي ومشاريعه التوسعية في المنطقة.

- من أهم الدراسات التي يجب أن يركز عليها الباحثون حول تاريخ منطقة توات، تلك الدراسات الأجنبية، وبخاصة الفرنسية منها.

الهوامش:

1- فرج محمود فرج، إقليم توات في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م، ص12.----2- محمد حوتية، توات والأزواد خلال القرنين 12 و 13 هـ دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007م ،ج1 ص2.

3- CAMBON Juiles, Documents pour servir à l'étude du Nord-Ouestafricain LES OASIS DE L'EXTREME-SUD ALGERIEN, Paris 1897, p.127.

4- كنكان موسى: سلطان مالي من أعظم السلاطين اشتهر برحلته إلى الحج، حكم في الفترة مابين (738-742هـ/1337-1341م) وهو من أبرز الشخصيات التاريخية في أسرة كيتا. حسين مؤنس، ابن بطوطة ورحلاته تحقيق ودراسة وتحليل، دار المعارف، القاهرة، 2003، ص7.

5- Martin A.G.P, Les oasis sahariennes, Alger et Paris, 1908, p 115.

6- Mario vivarer, Au Sujet du Touat, librairie Michel Ruff, Alger, 1896 , p.3.

7- مولاي أحمد الطاهري الإدريسي، نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات ومن بها من الصالحين والعلماء الثقات، تحقيق مولاي عبد الله الطاهري، الجزائر، 2010، ص57.----8- أحمد بوساحة، أصول أقدم اللغات في أسماء أماكن الجزائر، دار هومة، الجزائر، 2002م، ص79.----9- أحمد بوسعيد، الحياة الاجتماعية والثقافية بإقليم توات من خلال نوازل الجنتوري في القرن12هـ/18م، مذكرة ماجستير، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية والعلوم الاسلامية، جامعة أدرار، 2012/2011، ص16.

10- محمد بن عبد الله ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1997 م، ج4، ص277.

11- عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، تحقيق خليل شحادة، بيروت، 2001م، ج7، ص76.----12- الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، ط2، ترجمة محمد حجي و محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت ،1983م، ج2، ص133.

13- ابو سالم العياشي، الرحلة العياشية (ماء الموائد)، ط1، تحقيق سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي، 2006م، ج1، ص79.----14- أبو فارس عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، تحقيق عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف، الرباط، ص73.

15- يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، ج1، 1996م، ص318.----

16- إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص101.

17- الطاهر موساوي، الصحراء الجزائرية من الاستكشاف إلى التوغل والاحتلال (1828- 1934)، مجلة الخلدونية للعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تيارت، عدد1، 2014م، ص315.----18- أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث وبداية الاحتلال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص.35

19- أحمد العماري، توات في مشروع التوسع الفرنسي بالمغرب من حوالي 1850- 1902م، ط1، منشورات كلية الادب والعلوم الانسانية بفاس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، 1988م، ص 85.----20- الطاهر موساوي، المرجع السابق، ص 322.

21- ابراهيم مياسي، توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري (1881-1912)، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1996م، ص47.-----22- عبد القادر بوباية، دور الرحالة والمستكشفين في حركة التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية، مجلة عصور، جامعة وهران، عدد 4و5 ديسمبر 2003- جوان 2004، ص156.

23- Daumas Eugene, Le Sahara Algérien, études géographiques, statistiques, et historiques sur larégionau sud des établissements français, Dubos frères .Rue Bab-Azoun, Alger, 1845, p15.

24- Ibid, p 322.

25- يحي بوعزيز، طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الاوروبيون خلال القرن التاسع عشر، مجلة الثقافة، عدد 59، الجزائر، 1980، ص15.----26- ابراهيم مياسي، المرجع السابق، ص52.----27- نفس المرجع، ص55.----28- أحمد العماري، المرجع السابق، ص75.

29- Barnard safruu, chronique du touat (Des Reperes pour une Histoire) , C.D.S, ghardaia, p.9.

30- ابراهيم مياسي، المرجع السابق، ص57.

31- Paul Soleillet, L'Afrique Occidentale «Algerie, Mzab, Tidikelt», Avignon, Imprimerie De F Seguin Ainé, 1877, p 126.----32- Ibid, p 251.

33- الطاهر موساوي، المرجع السابق، ص 316.

34- Barnard safruu, op cit, p 09.----35- Léon Lehuraux, le conquérant des oasis colonel Théodore Pein, Préface du General Nieger, librairie plon, Paris, 1935, pp. 1-10.

36- محمد باي بلعالم، الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات، ج2، دار هومة، الجزائر، 2005، ص5.----37- ابراهيم مياسي، توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري (1881-1912)، المرجع السابق، ص 52.----38- محمد باي بلعالم، المرجع السابق، ص4.----39- عبد القادر بوباية، المرجع السابق، ص160.-----40- أحمد العماري، المرجع السابق، ص69.----41- ابراهيم مياسي، المرجع السابق، ص77.

42- C. Tillion, La conquête des oasis sahariennes opérations au Tidikelt, au Gourara, au Touat, dans la Zousfana et dans la Saoura en 1900 et 1901, éditeur militaire, paris, 1903, p14.

43- الحاج المهدي أبا جودة: هو المهدي بن الحاج عبد القادر بن محمد بن سيد الحاج محمد بن أعمر ملوك، رئيس قبيلة أبا جودة ومقدم الزاوية السنوسية بعين صالح، ولد حوالي 1854م بعين صالح، وينتمي إلى الأسرة السنوسية بنواحي مستغانم والتي تنحدر من أصول عربية، قام بعدة رحلات إلى كل من تونس والمغرب وموريتانيا والمسجد الأقصى والأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج، التقى بمؤسس الطريقة السنوسية الذي أعطاه الورد وكلفه ببناء زاوية سنوسية بعين صالح بعد رجوعه من الحج والتي تعمل على مجابهة المشاريع الاستعمارية ومقاومته بالصحراء، ونفذ هذا المشروع وأصبح مقدم الزاوية السنوسية بالصحراء. إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص 505.

44- Henri Froidevaux, L'occupation d'In-Salah et ses conséquences géographiques, la Géographie Bulletin Société de Géographie, Tome 1, Semestre 1900, p148.

45- الصافي خثير، النضال السياسي والثوري في إقليم توات ما بين 1956 و1962، مذكرة ماجستير في التاريخ العام، كلية الاداب واللغات والعلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة بشار، 2012/2011، ص39.----46- ابراهيم مياسي، المرجع السابق، ص 115.

47- Barnard safruu, op cit, p10.

48- تواتي دحمان وآخرون، دور اقاليم توات خلال الثورة التحريرية1956-1962، دار الشروق للطباعة والنشر، الجزائر، 2008، ص22.